

متضمنات الخطاب الغزلي في قصيدة "أنا اليوم بصبح وفيت الزين للشاعر"
الشلالي " -قراءة تداولية-

The implications of the flirtatious speech in the poem of the poet "Al Shalali"

د-بوتوشنت العصفورة*.

تاريخ النشر: 2021 / 12 / 20	تاريخ القبول: 2021 / 04 / 08	تاريخ الإرسال: 2021 / 02 / 04
-----------------------------	------------------------------	-------------------------------

الملخص:

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى استجلاء المعنى المضمّر في خطاب الشعر الشعبي، مستفيدين من آليات الدرس التداولي في تحليل الخطاب، الذي يتركز على مجموعة من القواعد والآليات؛ منها: متضمنات الكلام، وهو أحد المفاهيم الذي يرصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كافتراض المسبق والقول المضمّر منطلقاً من التسليم بوجود خطاب خاص بالشاعر الشعبي عمد فيه إلى المواربة في الحديث، لتمويه القصد الحقيقي لخطابه، فتعمد بسط ما لا يقال عن طريق ما يقال، وقدم لغة غنية بما يسعى الإضمّار.

ولتحقيق ذلك، عكفنا على مقارنة قصيدة من الشعر الملحون للشاعر (الشلالي). نجيب فيها عن عدة أسئلة منها:

-ما سمات خطاب شاعر الملحون؟ ولماذا ينزع هذا الأخير في خطابه إلى الإضمّار بدل الإفصاح؟

-وما دور التداولية في تأويل متضمنات خطاب الشاعر الشعبي؟

الكلمات المفتاحية: خطاب شعبي؛ مضمّر؛ افتراض مسبق؛ تداولية؛ متضمنات الشعر الشعبي.

المؤلف المسّجل: العصفورة بوتوشنت lasfouraboutouchent@gmail.com

* جامعة البليدة 02، lasfouraboutouchent@gmail.com

Abstract

Through this study, we seek to clarify the meaning in a person's speech from the writings of the written lesson in Discourse Analysis, which is based on a set of rules and mechanisms; including: they are included in the discourse, and he talks about the concepts governed by the terms of public discourse. To achieve this, we worked on a poetry fighter, to which we answer many questions, including: - What are the characteristics of an illuminated poet's speech? Why does the latter in his word tend to appear instead of revealing? - What is the role of rotation in interpreting the contents of the popular poet's speech?

Key words: popular discours; implicit; hypothesis; repercussion; popular poetic effects..

*** **

مقدمة:

إن المتكلم حين يبلغ رسالة ما، قد يجمع في كلامه بين الإظهار والإضمار، اللذين يؤولان تأويلات مختلفة حسب السياق الذي يردان فيه، من ثم عدّ سياق الكلام نقطة البداية لتحديد أقوال المخاطب، ما يفسر ارتباط تواصل الخطاب بالملفوظ والسياق معا. ولقراءة الخطاب وفق الإجراء التداولي، ينبغي تجاوز الملفوظ اللغوي إلى السياق لاكتنازه متضمنات، تغني النص فيما لو استخلصت منه، كونها المقصودة من وراء الخطاب.

يرى خطاب الرجل الغزلي مجالا خصبا لتموضع التداولية، لغناه بحاجاته النفسية وأذواقه الجمالية، فتسربت قصيدته في تفاصيل حياته الخاصة، وحملت لغته مخبوءات نفسه، فكانت مكن أسراره؛ مشكلة لديه نقلة في شكل الخطاب الغزلي المعهود، الذي اضطلع بالحديث عن هواجسه وأفكاره، فاستأثر بكشف سره. فإذا به ينتج خطابا، يتناول فيه تيمة المرأة، ليغدو هو موضوعا، بعد أن اعتدنا عليها هي موضوعا في شعره. فقال شعرا، عمد فيه إلى طرح قضيته من منطلق التبعات التي أثقلت كاهله بتأثير المرأة والمجتمع؛ وجابه تحديات وجوده بشعره، فأكد حضوره ووجودها الدائم معه.

من هنا يهيم الشاعر الشعبي في شعاب الكلام ليعبر عن إدبار الحياة وإقبالها عليه، فنظم الشعر، وأودعه أسراره، وزاعت أخباره، ووسعت له المجالس ما دام ينظم شعرا يتوافق مع ما وقر في الثقافة العربية من الإعلاء من قيم المجتمع، ولكن أن يتغزل ويبدي عواطف الحب والوله، ويصوغ عواطفه شعرا، فهذا غير معهود في مجتمع موغل في

البداوة، ولعل هذا ما يفسر ندرة شعر الرجال العاشقين، واقتصاره على ما وافق الذوق العام، وتراوحه بين الإسرار والإعلان، كون الرجل المتغزل يضمّر في حديثه أكثر مما يعلن، ويخفي أكثر مما يظهر لاعتبارات مجتمعية خاصة.

من ثمّ فضلنا وسم موضوعنا بـ "مضمّر الخطاب الغزلي في شعر الشلاي"، لأنّ هذا الشاعر بالذات لم يشأ دخول دائرة غرض الغزل ليضفي على الحبيبة القيم المتعارف عليها عند المتغزلين، أو تصور تجسيده لقيم العفة والطهارة، بل أراد التعبير عن حبه لامرأة ما، وعن الخيبة ويد الحساد في حرمانه من المرأة الحبيبة، فتردد خطابه بين الإظهار في شق والإضمار في آخر، ليبلغ رسالة تمزقه من الآخر، في غفلة من عيون المترصدين، لذلك حمل كلامه مدلولات تتجاوز ما يتلفظ به، ليشكل رسالة مشفرة يتوجّه بها إلى مخاطب مقصود بعينه، ليفكك شفراتها، ويفهم مراده منها، مستنداً في ذلك إلى افتراضات مسبقة.

والشاعر الشعبي ينحاز إلى أسلوب التضمين بدل التصريح، والتواري بالحديث تحت ضغط ظروف خاصة فرضها عليها المجتمع الريفي، لينتج خطاباً، يعتمد على إيجاءات اللغة وفنون البلاغة وقوة التصوير، عكسته مضمّرات نفسية ووجدانية، تتخفى خلف دوافع خطابه، فهو تغزل ليثبت زفرات حرى، وتوسل باللغة ليعبر عن حرقته المرة، وبالمشيئة الربانية نفسها تعزى عن فقد حبيبته، فحملت اللغة آلامه وإحباطاته، وسخطه على مجتمعه المتحجر في عادات بالية غاشمة وأشواقه القصية ومكبوتاته جميعاً، فكانت مسكنه ومأواه، وبها صاغ هويته، وأعلى من ذاته.¹

ونحن إذ نبحث في هذا النصّ الشعبي الأثير عما وراء اللغة من متضمنات الخطاب إنما نتوسل بإجراءات التداولية في تحليل النص، ونتخذ التأويل وسيلة للقفز على المعاني الظاهرة إلى المعاني المضمرة بما استيسر من مزية في التأويل الذي يتأسس في سياق التلقي المؤدي دوراً محورياً في عملية تأويل الملفوظات.

نص القصيدة:

لم تعرف السيرة الذاتية للشاعر (الشلاي) المدعو (الدقي) غير ما يتداوله محبو أشعاره من أخبار شحيحة، وأنه عاش في فترة الاحتلال ليمتدّ به العمر إلى ما بعد الاستقلال، وأنه اكتسب شهرته من حسن النظم، الذي أبدع فيه إبداعاً أسراً، لا سيما في بكائيته التي قص فيها قصة الخيبة في الظفر بمحبوبته بسبب الحساد وسوء تديره، إذا

يروي حافظو شعره أن الرجل تعلق بفتاة، وأنه رتب للزواج منها، ولم يكن التقدير منه في حساب تقلبات الظروف وبروز ما يمكنه أن يحول بينه ومراده من محبوبته، تقول المصادر الشفوية أن الشاعر العائر الحظ انخرط في الجيش عله يجمع ما يمكنه من مال للزواج منها، وهو ما حصل ولكن بمجرد انتهاء عقده العسكري عاد ليجد محبوبته في ذمة رجل آخر بسبب أنانية أهلها ومن يدور في فلکهم من الأقارب بسبب إغراءات المال.. وفيما يلي نص القصيدة الأشهر عنه:

أنا اليوم غادي وقيت الزين	صيغة من الذهب ربي صورها.
صيغة من الذهب تسوى ألف خزين	جاو الخسود من جيمي خونوها.
يا وخلي خيامهم القوم الحاسدين	ظيمني وظيمني قلبي صدوا بها
صيغة من الذهب مصبب	ماهي من صياغ دفي هودي
ما هيش من ربال مشبب	إذا بطى الحال يصري
ما هيش من جواه تلهب	مفوغ من ذهب صلصالي
صياغ دارها في قالب	والمال غي فبالو يقي
ما هيش ومي شغل وزانين	ما هيش كي ابن آدم صفها
يا مصيلم للولع والبقيين	يا اللعد يفخا والجواه بها
يا غلبة غايب جملة	أجي نعيد لك بمحاني
يانا اللي غست التخله	لو كان جبتها لجناني
والغ من ما يجي للخله	ويبغي اللي فبالو باني
معشوق في تم الذلة	عجونها احم يعجبني
ماهي من تم ورقلة	زفط للجدي دوجاني
يا الما جيتو من راس العين	عامين والقبائل تخدم فيها
بني محصن من بني سلاطين	موركحل وقصور ونزاهها
ألو كان نالج وراي زي	لو كان درت سورودورت عليها

لو كان دُرّت رتبة للعساكين
يا لو كان دُرّت علمها باب وقفلين
أَمْنين ما نَبَحْشُ وُراي شي
هذا ما كَتَبَ رَبُّ العالمين
أنا اللي احضَرْتِ الطاوس
طاوس بَطْنِنا بَسْ تَعْفَسْ
جِبْتِها من زمان يُبَخَسْ
واللي عزيز لا بُدْ يَخْسْ
والخير رك الطير يُحسّوس
فَلْت نَزِيدكم عَشْ أَلْف أَخِين
بِيعْ غَشْمْ وَقَمْ حَمِين
واحد قال نعطي فيها ميتين
اللي مُقابلو قال نعطي فيها أَلْفين
وَأَتَفَقُوا على التَّحْشِ بِشَدَّ يدين
يا وقصة صَوَّات بالشاللي مسكين
يا ويطلبو دموع فوق الخدين
يا ويخلي خيامهم القوم الحاسدين

يا الحاضرين في الغيبة يجزوها
لو كان بالحديد غُلِقَتْ علمها
يا ولَعَسْتِها صَدِيت علمها
يا الكاتبة على العبد يُودِها
رَبِيتُها لا بِالْجَحْدَة
في قَفْصِ عَلِيَا مِنْ سَدَا
وَيَمَّا رَ الْعَسَلِ فِي الشَّهْدَة
وما كان من بَغَاهَا لَبْدَا
نَوْبَة يجي ونوْبَة يُغْدَا
يا لو كان ما غَصْبَتْوشي بَعْتوها
يُظَلُّو مَجْمَعين على سَوْمَتِها
بالميز غالية ما شي سَوْمَتِها
بالميز غالية ما شي سَوْمَتِها
ربي اعطاه راح موْتَسْ بِها
يا ومنين جا صاب لا مَسْمَها
والعين تبكي لبدا عامها
ظِيَمِي وظِيَمْ قلبي صَدُّوا بِها

سمات الخطاب الأدبي التداولي:

لقد انفتح النص الأدبي على المقاربة التداولية عندما عدّ النقاد النص الأدبي خطاباً، وإن غابت عنه العناصر الخطابية، التي تتجلى في الخطاب اليومي الذي قامت على دراسته التداولية بادئ الأمر، فولجت التداولية نصوص الخيال، واستثمرت نظرياتها في لغة النص، وفكت شفراته بإدخالها السياق في أثناء قراءة النص، وقد وجدت صعوبة جمة؛ لأن النص يغلب عليه اللغة الإيحائية. فكل قول شعري تخيلي ينجز قولاً متضمناً في

القول، تتجاوز دلالاته " الملفوظ ذاته، وترتكز على مواضع مضمرة خاصة، وعلى عقد واقع بين الكاتب والقارئ، إنها طريقة مخصصة في اللعب مع العلامة"2.

وبفضل توجهات التداولية الجديدة، انصرفت الدراسات اللسانية من مجال اللغة إلى مجال الأدب. وصارت تنعت بالتداولية الأدبية التي أساس موضوعها دراسة النصوص وتحليلها. وبذلك نقلت التداولية النص من الدراسات التي تقصته على المستويات النحوية والدلالية والمعجمية، إلى تناوله على المستوى التداولي، فتركزت جهود المشتغلين بإزائها على حقل النصوص الأدبية في ما يعرف بمفهوم "التواصل" القائم على دعامي الفهم والتأويل. هذا التواصل كان محل اهتمام القراءة بوصفها "تواصلًا يتحقق بين القارئ وموضوع القراءة، فالوصفية النقدية في إطار عملية القراءة، وظيفة تقوم على أساس السعي إلى تحقيق تواصل فعال بين القارئ وموضوع القراءة. وكأي تواصل تحتاج عملية القراءة إلى أسباب لعناصر الموضوع المقروء، وإحاطة بالعوامل الفاعلة فيه، مثل السياق، ومقاصد المتكلم"3. فالتداولية إذاً خطاب تواصل مستجد، يتناول العديد من ظواهر اللغة ويفسرها، ويسهم في حل عوائق التواصل وإشكالاته، وذلك لأنها مجال رحب يستمد معارفه من حقول معرفية متعددة، فيستقي من علم الاجتماع السياقات الدالة ومن علم النفس المعرفي الأسرار الكامنة، واللسانيات وعلم الاتصال والأنثروبولوجيا، والفلسفة التحليلية ملفوظاته الموحية4.

وتقوم التداولية المعاصرة على مفاهيم يتداولها المشتغلون على الخطاب التداولي والمحصورة في: الفعل الكلامي، والقصدية، ومتطلبات الحوار، ومتضمنات القول ونظرية الملاءمة5، ويهدف الإجراء التداولي في تحليله الخطاب إلى "التركيز على الجوانب الدلالية والسياقية التي تضبط مقاصد النص وغاياته حيث يمثل النص الأدبي فعلاً تواصلياً يؤكد أهمية السياق في تفسير الكلام وتأويله"6.

سمات الخطاب التداولي للشاعر الشعبي:

يستعمل الإنسان اللغة للتواصل مع غيره لتبيين مقصديته، وتحقيق هدفه؛ أي بلوغ الإفهام والفهم، غير أن أهمية اللغة تتجاوز ذلك كله، فتتعدى وظيفة التبليغ، إلى إنجاز أعمال لا يمكن إنجازها من دونها، فالاستعمال هو الذي يخرجها من حالة السكون إلى الحركة، فما يتم التبادل به ليس اللغة وفق رأي (فرديناند دوسوسير)، بل الخطاب الذي

يستجلب المعنى من الخارج. أي أن المستعمل من اللغة هو الخطاب الذي يتواصل بموجبه على مبدأ الحوارية وتعدد الأصوات، وبوساطة الخطاب ينقل الكلام من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية، فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به، وهو الكلام. 7.

الثابت أن الخطاب يتجاوز الجملة، كون الجملة هي الوحدة الرئيسة للخطاب، مثلما هي العلامة وحدة الجملة، والجملة ليست بالكاد علامة، فالخطاب وعاء يستوعب الجمل ويتضمنها وفق مجريات علم الدلالة الذي يتلمس البنية التركيبية للجملة لفهم مقاصد المتكلم ويفصح عن المعنى الذي يندس عليه الكلام.

من هنا نتناول الخطاب الغزلي في شعر "الشلالي" على أنه مجموعة مؤلفات من النصوص المتواشجة فيما بينها، وتكون بتواشجها رسالة محددة، مرتبطة ارتباطاً فنياً وجمالياً، وتكون هذه الرسالة التضمينية أو الخطاب التداولي محملين برسالة مشفرة إلى القارئ أو المتلقي. 8. فهو الأداة الفاعلة بالكلام بهدف التأثير في المتلقي؛ لأنه في حدود المعنى _ ومن خلفية منطقية _ هو تخليص المعنى مما يشوبه من ظنون ومتغيرات قد تترك الإفهام لدى المتلقي، لذا هو لا يقدم نفسه على أنه ثابت وكلي بقدر ما يقدم نفسه على أنه نقي وذو معنى. 9.

ينطلق الحديث من التسليم بوجود خطاب شعبي إبداعي رسمت ملامحه في التراث الشعري العربي منذ زمن بعيد، لتجاوز إشكالية تمييز إبداع الفصيح من إبداع العامي التي أثارها النقد العربي الحديث في القرن العشرين، وانقسم النقد حيالها بين مؤيد لوجود خطاب ومعارض للتسمية أصلاً، يجري "تحت ضغط أيديولوجية مركزية"، هذه المحاولة للمساواة تقوض الحدود الفاصلة بين إبداع الفصيح والعامي، وتلغي خصوصيتهما. فاللغة التي يستخدمها المبدعان لغة واحدة ذكورية "10 حقاً، لقد تمكن الشاعر الشعبي من ذلك، إذ لم تقف وحدة اللغة دون تشكيله خطاباً خاصاً به، يرتبط بذاته، فهناك كلام مرتبط بالذات المتلفظة، فالرجل من هذه الزاوية لا يستطيع أن يكتب، لأنه لا يستطيع أن يكتب عن أشياء لا يعيشها. 11.

إن أساس الاختلاف بين إبداعي كل من شاعر الملحون وناظم الفصيح يفترضه اختلاف الثقافة والاهتمام بين التقريظين، باعتبار "الشعر الشعبي متمم للدراسات الأدبية في

الشعر العربي"12، ولقد أعانت اللغة الشاعر الشعبي على تحقيق خصوصيته، لأن اللغة قدرة على "استيعاب الاستخدام الفردي، يحققها من يمارسها، ويشعره بالتفرد أو التميز ويستحضر ذاته، وفكره ورغباته وإرادته داخل رسالته القولية."13، بل نقصد تلك السمة البارزة التي تطبع الإبداع الأدبي الذي أنتجته الشاعر الشعبي، ولا يمكن أن يكتبه غيره، كونه يحمل جراح نفسه وآلامه التي تسببت بها المرأة، فكتب بكل حرقة، ودبجه بكل ما يلامس ظروف حياته ووضع الاجتماعي والذاتي. فتمركز خطابه حول ذاته، فكان متفردا من حيث الحال الثقافية والوجدانية، التي تستجيب لطبيعته الريفية بما يكون هوية جنسية بمفهومها الثقافي، وليس تصنيفاً بيئياً.

إننا نرى في خطاب الرجل المتغزل خصوصية تميزه، فدل على نفسه في نصوص شعرية توجه بها الشاعر الشعبي إلى الآخر، فتضمن كثيرا من تفاصيل عالمه، الذي عمد فيه إلى الإسرار حيناً، والإعلان حيناً آخر، وتلاحقت فيه متضمنات القول ومضمراته في إطار العلاقة الحميمة، بما يدور فيها من حقائق وهواجس، الأمر الذي جعل نصه في كثير من الأحيان دوامة لا تهدأ من المعاني المتداخلة، والدلالات الخفية، والأصوات الصارخة الباكية، وأحيانا الخادعة التي تموه القصد الحقيقي لتكون بعيدة عن الشبهة التي يمكن أن تنجم من خلال تناول موضوعات محظورة ومجافية للذوق، تعود عليه بالإدانة؛ لذلك قام خطابه على ازدواجية المعاني والتباسها، والبنى الخطابية المهمة، فتداخلت المعاني والدلالات الخفية فيه، فهو يخفي حيناً، ويخادع أحياناً؛ لتمويه القصد الحقيقي لخطابه مستثمرا عناصر الإيحاء والإشارة والإيماء والرمز التي يبيحها الشعر، فاستثمرها في خدمة خطابه المشحون بدلالاته المكثفة، تاركا للمتلقي مهمة بلوغ الفهم والإفهام.

وسنحاول في هذا المقال استبطان المضمير في خطاب (الشلاي)، من خلال تجاوز الملفوظ اللغوي إلى سياق التلفظ لاكتنازه بمضميرات تغني النص، ففي الإضمار بقاء الأثر المقدر في اللفظ؛ لأن اللفظ يفتح باب تفسير التضمين في النص. إذ لابد أن يبقى الشاعر دليلاً على ما ألغى، وعليه يكون الإضمار تغييباً مقصوداً لعنصر ما مع الاحتفاظ به في الذهن، ومن هنا تصبح دراسة الخطاب الشعبي استنطاقاً للنص بما يضمّر عبر النظري في المستوى الدلالي بين الملفوظ المسكوت عنه أو المكبوت، الذي يحمل خصوصية تلفظات الرجل عن

طريق الكشف عن نتاج في ظروف خاصة ألقت بثقلها على المبدع مرتين، مرة عبر سلطة المجتمع، ومرة أخرى عبر سلطان المرأة.¹⁴

وتفسير المعنى المضمر في شعر البدوي المتغزل، وتوضيح علاقته بموقف الكلام من شأن التداولية واهتماماتها، التي تدرس اللغة في استعمال الناطقين بها، فما تلفظ به الشاعر الشعبي عموماً، مشحون بالدلالات التي يتوصل إليها من خلال البحث عما وراء النظم، والمعلوم أن الإضمار ضرورة لإنجاز الخطاب بعامة والخطاب الشعري بخاصة إذ يعد الخطاب العامي أقل الخطابات تصريحاً لما يفرضه قيود المجتمع عليه بوصفه خطاباً مغايراً للخطاب السائد الذي يكرس صورته لخطاب المجتمع، المدعن لقراراته. الأبعاد التداولية في تأويل متضمنات شعر (الشلالي):

تضم المتضمنات كل المعلومات القابلة للنقل عبر قول معين، التي يبقى تفعيلها خاضعاً لبعض خاصيات السياق التعبيري الأدائي¹⁵، لذلك سنقف عند الطريقة التي ترتبط بها القضية بالجملة المعبر عنها في كل الحالات، إذ تتميز عن الدلالة الحرفية للجملة، وبهذا سيتم التمييز بين المعنى الصريح ومعنى التلميح، من خلال طرح فرضيات مسبقة وسياقات مضمرة.

إن الافتراض المسبق يقتضيه اللفظ، ففي كل تواصل لساني ينطلق كل من المرسل والمتلقي من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة، فمن هذا المنطلق يبرز دور الخلفية المعرفية التي ينبغي توافرها لدى مستخدمي اللغة، لفهم ملفوظ ما لا يكفي المرء تسخير كفاءته اللغوية، بل عليه كذلك التعويل على معرفة موسوعية، أي معرفة العالم التي اكتسبها¹⁶، فالغنى الموسوعي هو "مجموعة معارف ومعتقدات، ونظام تمثيلات العالم المرجعي وتأويلاته وتقويماته"، ونطلق عليه المعلومات المسبقة¹⁷، وهي ذات شأن في فك ترميز المحتويات المضمرة.

لماذا لجأ الشلالي إلى الإضمار؟:

قد "يعجز المتكلم لأسباب تتعلق باللياقة عن استعمال العبارة المباشرة، فيلجأ إلى الصيغ المضمرة لتذليل عقبة وجود بعض المخجلات في مجتمع محافظ، وذلك بغية

إحباط بعضا من الرقابة ذات الطابع الأخلاقي أو السياسي أو القانوني والاحتيايل على قانون الصمت الذي يحظر التحدث عن بعض الأغراض الخطابية، ففي سياق اجتماعي معين، ثمة العديد من الأمور التي ينبغي إضمارها و"عدم الإتيان على ذكرها"- بشكل مباشر على الأقل¹⁸. ومن هذه الأمور الانفتاح في الحديث عن المشاعر التي تعترى المرء في أحواله المختلفة، فكيف بحديث الشاعر الشعبي المحافظ ، وقد مض به الحب! فهذا الشاعر على جرأته كان يعتمد في خطابه إلى تضمين قوله مالا يستطيع ذكره صراحة في ملفوظ حديثه، فيسلك شعابا شتى للإبلاغ ما يعتلجه في إبلاغه لمخاطب بعينه، وعلينا تأويله حسب السياق الذي ورد فيه ومقتضى المقام الذي ينجز ضمنه. فعندما يقول (الشلالي) حاله الممزق:

أنا اليوم وفيبت الـزين	صيغة من الذهب ربي صورها
صيغة من الذهب تسوى ألف خزين	جاو الحسود من جيبي خونوها
ياو يخلي خيامهم القوم الحاسدين	ظيمني وظليم قلبي صدوا بيها

فإن قوله يفترض: أن يصرح بالحبيبة دون أن يعدل إلى الإضمار والاكتفاء بالتشبيه، حيث اختار أئمن الذهب ليسقطه في كمال الأوصاف وفي الأسماء "صيغة من الذهب" و "الف خزين" كفاية عن علو كعب الحبيبة بين الأتراب، وهو على هذا يجلب الانتباه إلى تفردا في أنثويتها، كما أن الكلمات ذاتها تتضمن افتراضاً مسبقاً بمعرفة قدر الجمال التي هي عليه، بارتباط إحساس الإنسان المهموم بالخيبة، إذ يتحول هذا الانبهار الى خيبة حين تسرق منه بفعل الحاسدين مما شحن نفسه إزاء الموقف فصب جام غضبه عليهم أن رحلوا بسويداء قلبه عروسة لغيره يفترض بحكم الموقف المؤلم أن يضم الحاسدين المفترضين..ليفهم من الملفوظ أنهم أولياء أمرها.

وهذه الافتراضات تشكل خلفيات التبليغ الضرورية، وهي موصولة بسياق الحال وعلاقة المتكلم بالمخاطب، وقد ترتب على هذا الافتراض فهم المعنى الضمني أو المضمّر وهو انحراف الفكر الذي آلت إليه عزلته للتفكير بفعل انتقامي يبكي الخيبة ويشير بأصبع الاتهام الى الفعلة، فآلح إلى رغبته في الانتقام من سلبه ربحانة قلبه ومناه. فالقول السابق يتضمن معاناة وصرخة محب ومنطوقا يحمل تهديداً ووعيداً صارخاً.

وعندما يقول:

يا غربة غرايب جملة آجي نعيد لك بمحاني
أنا للي غرست النخلة لو كان جيتها لجناني
والغرس ما يجي للرحلة ويبغي لقبـالو بـاني

يقتضي الملفوظ كتم العلاقة الطويلة بينه وبين الحبيبة، فالشاعر يضمّر أن يصرح بالعلاقة، ولكنه لأسباب مجتمعية لن يبوح للعامة، والكتمان يحمل الإخفاء الإرادي لأمر قد ينجّر عنه عواقب غير محمودّة، ولكنه قد يكون أيضاً وسيلة لتنبيه السامع لدفعه لفهم القصة من بداياتها وما يحيط بإشكالية الإخفاء والكتمان، ولا يتم ذلك إلا بتجاوز الملفوظات ومكوناتها اللغوية، فعبارة " أنا اللي غرست النخلة" يقتضي افتراضاً مسبقاً مفاده: "عشقنا بعضنا من زمان"، وهنا على المتلقي مشاركة المتلفظ في هذا الافتراض كاتفاق غير معلن، وبمثابة الشرط للملفوظ لاحق، وهو كما توحى كلمة "النخلة التي توحى بالزمن الطويل حتى تصل مرحلة العطاء وهي الزواج"، ثم نجده في تداوليته الخطابية يلقي باللائمة على نفسه ويحيل السامع الى أن البداهة تقتضي في الزرع المراقبة الدائمة وعدم الابتعاد عنه. ثم أن سوء التدبير وقصر التفكير وقراءة العواقب وما يستجد لاحقاً هو ما يشحن نفسه غيظاً على نفسه بدل أن يقصره على الحسدة.

لو كان نربح وراي زين لو كان درت سور ودور عليها
لو كان درت رتبة للعاسسين يا الحاضرين في الغيبة يجزوها
لو كان درت عليها باب وقفلين لو كان بالحديد غلقت عليها
آمنين ما نربحش وراي شين لا غرستها صـديت عليها

فعندما يحمل (الشلالي) نفسه مسؤولية الخيبة في الظفر بحبيبته، ندرك مدى الصراع النفسي الذي يدور بداخله ولكن نجده يستعيد مع نفسه حين يعزوها للأقدار التي يقف عندها (الشلالي) عاجزاً ثم مسلماً.

وهذا ما كتب رب العالمين.....والكاتبة على العبد يودها

يفترض أن نفسه تضطرم بنار الندم،، وأن إلقاء اللائمة على الحساد تارة وعلى نفسه تارة أخرى ثم التسليم بالقدر يدل على تعدد الأصوات وتداخلها؛ صوت العقل وصوت العاطفة؛ فالشاعر يعبر تعبيراً متزامناً عن الصوتين المتقابلين، اللذين يتبنيان جانب العاطفة "القوم الحاسدين" وصوت المتكلم المسلم للقدر "هذا ما كتب رب العالمين"، فالنفي يشير إلى إثبات ضمني للشأن العظيم للهوى، وللإبتلاء به معا من قبل المتكلم الذي أعياه تحمل ظاهرة الهوى التي تضطرم في النفس، ولا يمكن أن يخضع إلا لصوت العقل والمنطق. وذلك ليثبت على نفسه سمة الإيمان بما جرت به المقادير في شأن الهوى. كان عليه أن يعجل بخطبتها ووضع حد للمتريصين بها من الخطاب وبالتالي يحسم الأمور لصالحه ولكن خانه سوء التدبير وأجل الحسم تاركا المجال للطامعين، وهنا نجد الشاعر يضمّر الخطبة بملفوظات، من قبيل "سور ودور"، "باب وقفلين" "رتبة للعاسسين"، وهو في تداوليته هذه يدرك ما سيرد عليه السامع، فحتما السامع يرى أنه عليه خطبتها مسبقا قبل غيابه المؤقت عنها.

أنا اللي حضيت الطاوس	ربيتها لا بالجحادة
جبتها من زمان يبخص	ويمر العسل في الشهدة
واللي عزيز لا بد يرخص	وما كان اللي بغاها لبا

هنا فكرة عن زمن الشاعر المتسم بالحيث والسوء، شعر فيه الشاعر أنه لم يعد فيه عزيزا وإلا ظفر فيه بطاوسه "جبتها من زمان يبخص"، "يمر العسل في الشهدة"، "اللي عزيز لا بد يرخص" ولعل حرص (الشلاي) في كلامه على الإخفاء أكثر من التصريح لدى خوضه في تفاصيل العلاقة بالمحبوبة – والزمن الغشوم الذي وجد فيه كان سببا في اكتناز قوله بمعان خاصة إيحائية ترتبط "بالتعبير اللساني"، أو ما تثيره العلاقة بين القول والسياق، فكل قول يثير جزئيا أقوالا أخرى يضمها أو يخلقها بوعي أو بدونه داخل نظام دائري، حيث الكل متماسك، إذ يستحيل التواصل بغير ما هو خفي وضماني، فالتصريح بكل شيء في رسالة بسيطة يتحول إلى دائرة مغلقة ليس لها نهاية، لذلك لا يمكن أن يقال كل شيء".¹⁹

فالشاعر عندما يكسر حاجز الممنوع بتلميحات وإشارات في أحيان كثيرة، وتصريحات تخفي معاني ضمنية، يفيض المعنى عن حقيقة الجملة وهذا ما نجده في التلميح إلى موطن الحبيبة:

يا الما جبتو من راس العين عامين والقبائل تخدم فيها
بني محصن من بني سلاطين موركل وقصور ونزاها

وهو ما يشكل خلفية لنجاح الرسالة التبليغية في هذا القول ، ويقدم معلومات لنا لنستند إليها في الوصول إلى المضمرات عن مرابع الحبيبة وهو عبارات : " الما جبتو من راس العين " و " موركل " و " قصور " و " نزاها "، التي تفترض موطن الحبيبة جغرافيا، ونحن ننتقل من هذه الافتراضات المسبقة لمعرفة بلدها. ولعل في هذا مقارنة لما تعني به التداولية عندما تلج على ارتباط التواصل الخطابي بالمتلفظ، والمتلفظ إليه والسياق. والسماع في تجاوبه مع الشاعر لا يجد كبير عناء في تلميحاته لموطنها وأنه سيدرك من مفردات أمارات المكان وأنها من منطقة الجريد بسكرة.

معشوق في تمر الدقلة عرجونها احمر يعجبني
ماهيش من تمر ورقلة زيفط للجريد وجاني

ومع التسليم بأن التداولية تستند في إبراز معاني الكلام على النص في علاقته بحال المخاطبين وحال المخاطب، وسياقات اللفظ، فإننا نستند إلى قصد المخاطب، يفترض قوله: أنها من منطقة بسكرة وهي بقعة عامرة بسكنات مميزة من قبيل البناءات ذات الأقواس في ما يعرف بالمرور أو القصور المسورة المعروفة في الصحراء الكبرى..كما يفترض قوله ذلك الكم الهائل من المعاناة التي تدفعه إلى قراءة التجربة، في زيارته لها .

ولنا هنا أن تسأل هل يكون الشاعر قد أثار انتباه السماع وعرف رغبته في معرفة هذه الحسناء التي أخذت بألباب الشاعر ورغب في معرفة موطنها؟ فالمعنى المضمر هو أن الشلاي لا يزال يعاني شجون الحب، وهو ما يعبر عنه بالحنين لمضارب الحبيب التي يستغنى فيها عند مجتمع الشاعر عن رؤية الحبيب، أي مرور على الديار.

إن المعنى الضمني هو غاية الكلام، ولا يشار إليه لسانياً، بل يؤول حسب معطيات السياق الذي قيل فيه ، ولذلك كانت الغاية من الخطاب حكمة يقدمها للمتلقي، وكان الوصول إليه عن طريق عمليات استدلالية تداولية بفعل تشغيل عدة تلميحات إذ أن " استخدام إشارات معينة يمكن من رسم حدود المسافة الاجتماعية بين طرفي الخطاب" 20. طمس المقاصد في الخطاب التداولي للشاعر الشلاي :

لقد تحايل (الشلاي) على اللغة، فأوحى بالمنوع، ووقع فعل الحب، فأثبت بذلك قدرته على مواجهة ثقافة مجتمع منغلق، ومكن لذاتيته من حيث قدرته على الفعل والبوح بلواعج النفس، فاننصر على المجتمع بطريقته 21، وأزاح الأحكام النمطية التي صاغها المجتمع وحكم بها على أفرادها. وقد أنجز هذا من خلال التخاطب داخل النص الشعري مع ذات أخرى (الحبيبة) الذي أنشئ الخطاب لأجلها، وروض العناصر النصية لخدمة موضوعه. وشاعر الملحون لا يوغل في إبعاد مراميه عندما تدور عليه الدوائر، وتطمس مقاصده، فيصعب تأولها لولا إشارات وتلميحات وبؤر ترد في النص، وتوحي بما خفي، وذلك كأن يختلق الشاعر حواراً عن الحاسدين ليثبت ما يريد قوله عن طريق التلميح لاعتبارات كثيرة. فقد يكون الحوار تعبيراً عن مقاصد بعينها، بغية تحميل الخطاب أنواع الأقوال المضمرة والافتراضات المسبقة. فعندما يقول الشاعر:

قلت نزيدكم عشر آلاف آخرين	لو كان ما غصبتوشي بعثوها
بيع غشيم وغرم حراميين	يظلو مجمعين على سومتها
واحد قال نعطي فيها ميتين	بالميز ما شي سومتها
اللي مقابلو قال نعطي الفين	لو كان ما غصبتو بعثوها
واتفقو على الريح بشد ايدين	ربي اعطاه راح مونس بها

يفترض قول (الشلاي) أن هناك صفقة بيع تمت في غيابه تم بموجبها بيع الحبيبة، وهنا رسالة ضمنية لولي أمرها الذي لمح إلى أنه تاجر بمحبوبته وأنه سلمها لمن كان أكثر دفعا، نجد في خضم هذه الصفقة يحشر نفسه ويصبح أحد هؤلاء المشتريين حين يقول قلت: " نعطيكم ميتين لو ما غصبتوشي بعثوها" وهي رسالة أنه كان على استعداد للظفر بها ولو بذل المال ودخل في مضاربة تجارية خالصة وهو ما يسيء للحبيبة ككيان اعتباري فوق الصفقات التجارية إن المعنى الظاهر يكشف عن نوايا الشاعر في بذل المستحيل والقبول

تنزلا بمطلب أولياء الحبيبة وهو ما يعتقد فيه تفهما والتماسا بالعدر من المتلقي، وفي مقابل هذا الاستبطان العاطفي نلمس عنده تسليما بعبء الله ومنه على غيره. "ربي اعطاه راح مونس بها..". ففي الأبيات انعطاف الكلام باتجاه أولياء الحبيبة ؛ ففي قوله خطاب تلميعي، موجه إلى المخاطب بوساطة الحوار المنقول الذي شغل وظيفة أساسية ، في صرف دلالة المعنى إلى أوليائها فانكشف المضمهر حقق التواصل والإبلاغ والإفهام، فغير مجرى حياة الشاعر.

الخاتمة

ونصل في الخاتمة إلى أن الموضوع كان تطبيقاً لأحد الإجراءات التداولية على نص شعبي تراثي، فكان أن تم تحديد سمات خطاب الشاعر الشعبي المتغزل، وبيننا الأسس النظرية للتداولية التي وقفنا عليها بالتحليل، وبيننا متضمنات النظم: الافتراض والمضمهر من إمكانيات القول عن المخفي المندس في مضامين الخطاب التداولي للنص الشعري . لقد قادنا الموضوع إلى التسليم بخصوصية خطاب البدوي المتغزل، تقوله لإثبات حضوره وإثبات كينونته، فحملت لغته طبيعته البدوية، فأخفى أسرارها، التي توارت في التعبير خوفاً من المجتمع الذي عدها تصاب ونزع إلى التضمنين التلميعي تاركا للسامع قدرة عقله في فهم الرسالة ومتضمنات الخطاب.

وقد أثرتنا تطبيق الإجراءات التداولية للمسك بمتضمنات عناصر الخطاب الخفي للشعبي من خلال الوقوف على القوانين التي ينظم بها القول، فربطنا استراتيجيات خطاب الشاعر الشعبي وتقنياته (الافتراض المسبق والقول المضمهر) بما هو خارج النص من ثقافة وتقاليد محلية. فتوصلنا إلى أن خطاب البدوي كان لغايات وأهداف محددة، ذات دلالة تضمينية مضمرة، أخفى فيها سرائره التي تم اكتناهاها من ثنايا النص الملحون، لذلك لم نطل في فك ظاهر الكلام، بالقدر انطلقنا منه لكشف المضمهر، وتأويله استناداً دائرة الأوضاع السياقية، لنصل إلى أن الإجراءات التداولي في الخطاب مكننا من التعرف إلى ما يتضمنه خطاب الشاعر الشعبي من قضايا وإشكالات عاناها في حالي الحب والفقد، وعبر بصدق عن معاناته في كل عصر. وذلك لم يكن متيسراً لولا ما أتاحتها التداولية من إمكانية دراسة المعنى بموقف الكلام، وتركيزها على سمة الأدب الاتصالية، والاتصال لا يمكن أن يكتمل إلا إذا أولينا الأدب وسياقه الاهتمام الذي يستحقه في تحليل الخطاب المقصود .

ونزعم في الأخير إن الرجل البدوي المتغزل نجح في تبليغ ما يريد، انطلاقاً من معرفته لما يدور في ذهن من يخاطبه. فكانت لغته كاشفة أسرار. التي ظلت حبيسة في صدره.

الهوامش:

- 1 - ينظر: نور الدين أفاوية ، الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش ، الدار البيضاء ، 1988. ص 36.
- 2 - ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، سوريا، سنة 2007م،، ص 194.
- 3 - محمد أديوان، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، مجلة الوصل، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان ، العدد 1 ، جانفي، 1994، جامعة الرباط ، كلية الآداب، ص 25 .
- 4 - ينظر: أحمد محمود نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة/الجديدة، مصر ، 2002 م، ص 10 – 11.
- 5 - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية " في التراث اللساني العربي ، دار الطليعة، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2005. ص:30.
- 6 - عبد القادر عواد، آليات التداولية في تحليل الخطاب الأدبي أنموذجاً، البيان الكويتية ، العدد 490، 1مايو، 2011 م ، ص 38 .
- 7 - ينظر: إدريس حمادي، لخطاب الشرعي وطرق استثماره ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1994م. ص21.
- 8 - أحمد الصغير المرابي، الخطاب الشعري في السبعينات (دراسة آليات تحليل الخطاب) ، دار نشر العلم والإيمان،، ط1، القاهرة، مصر ، 2008م. ص 17 .
- 9 - بن مسعود، رشيدة، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، إفريقيا الشرق، ط3، الدار البيضاء، المغرب، 2002م. ص 90 .
- 10 - ينظر: الغدامي محمد عبد الله ، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت – لبنان ، 2006 م ، ص8 .
- 11 - محمد بريدة، هل هناك لغة نسائية، مجلة آفاق، المغرب ، العدد 12، أكتوبر 1983م. ص135.
- 12 - التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الجزائري في الثورة: 1830م - 1945م- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1983م، ص6.
- 13 - محمد السيد، وآخرون، في أدب المرأة، الشركة المصرية ، سيد قطب ، العالمية للنشر، لونجمان، ط1 ، مصر ، 2000م. ص 49.
- 14 - ينظر: ويلفرد إلغويرين وآخرون، مدخل إلى النقد الأنثوي، تر: نجم عبد الله كاظم، جدة، مجلة نوافذ، ع9، 1999م، ص 99- 100 .

- 15 - ينظر: المرجع نفسه، ص 74.
 - 16 - دومينيك مونقانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط 5، الجزائر، 2005م، ص 45.
 - 17 - كاترين كيريرات-أوريكيوني، المضمهر، تر: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، لبنان، 2008م، ص 285.
 - 18 - المرجع نفسه، ص 498.
 - 19 - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 2006م، ص 47.
 - 20 - شير رحيمة، نقلا عن كتاب تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجا، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ص 212.
 - 21 - عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط 3، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص 93.
- المراجع:

1. التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الجزائري في الثورة (1830م - 1945م) - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م.
2. أحمد الصغير المراغي، الخطاب الشعري في السبعينات (دراسة آليات تحليل الخطاب)، دار نشر العلم والإيمان، ط 1 القاهرة، مصر، 2008م.
3. أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة/الجديدة، مصر، 2002 م.
4. إدريس حمادي، لخطاب الشرعي وطرق استثماره، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1994م.
5. بن مسعود، رشيدة، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 3، المغرب، 2002م.
6. دومينيك مونقانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط 5، الجزائر، 2005م.
7. شير رحيمة، نقلا عن كتاب تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجا، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، تاريخ النشر. 2009م.
8. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
9. عبد القادر عواد، آليات التداولية في تحليل الخطاب الأدبي أنموذجا، البيان الكويتية، العدد 490، مايو، 2011 م.

10. عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، 2006م.
11. الغدامي محمد عبد الله، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان، 2006م.
12. ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، سوريا، سنة 2007م.
13. كاترين كيريرات – أوريكيوني، المضمّر، تر: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2008م.
14. محمد أديوان، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، مجلة الوصل، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان، العدد 1، جامعة الرباط، كلية الآداب، جانفي، 1994م.
15. محمد السيد، وآخرون، في أدب المرأة، الشركة المصرية، سيد قطب، العالمية للنشر، لونغمان، ط1، مصر، 2000م.
16. محمد برادة، هل هناك لغة نسائية، مجلة آفاق، المغرب، العدد 12، أكتوبر 1983م.
17. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 2005م.
18. نور الدين أفاوية، الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، الدار البيضاء، 1988م.
19. ويلفرد إلغويرين وآخرون، مدخل إلى النقد الأثنوي، تر: نجم عبد الله كاظم، جدة، مجلة نوافذ، ع9، 1999م.